مقدمة

لا أظن أدبًا معاصرًا له من العمر ما للأدب العربي .

إن أقدم نص أدبي ، فى أية لغة أوربية معاصرة - مثلاً - لا يتجاوز القرن الثانى عشر الميلادى بحال ، وما قبله فآداب بلغات أخرى ، اندثرت أو أصبحت تاريخًا يدرس . وحتى هذه الآداب الأوربية تطورت لتصبح على ما هى عليه الآن ، تطوّرت فى الأصوات وفى الدلالة وفى التركيب ، فالإيطالى العادى ، والإسبانى غير المثقف ، والفرنسى غير المتخصص ، والألمانى الذى لا يهتم بالأدب ، سيجد من العسير عليه ، إذا عاد إلى أدب قومه فى القرن الثالث عشر الميلادى ، أن يقرأه فى سهولة . وأن يفهمه فى وضوح .

أما لأدب العربى فأقدم نص فيه يعود إلى مطلع النصف الثانى من القرن الخامس الميلادى ، أى له من العمر ألف وخمسمائة عام كاملة ، ولا يجد القارئ العادى صعوبة فى قراءته ، أو عسرًا فى تمثل معناه ، فقواعده اللغوية هى التى نسير عليها ، وتركيب الجملة فيه هو نفس ما نحتذيه ، والغموض الذى يصاحب جانبًا منه ، أحيانًا ، مردّه سبب آخر غير اللغة نفسها ، إن إنسانًا غير خبير بالصحراء ، مهما كانت درجة ثقافته ، سيجد بعض العنت فى تصور الحياة عليها حيوانًا وأشجارًا ومهابط وعيونًا وتقاليد ، لأنه مرتبط بدلالات أسماء لا مقابل لها فى حياتنا المعاصرة ، وهو أمر يجرى على اللغة العربية الأدبية ، كما يجرى على اللهجات العامية ، ولا صلة له بالفصحى من قريب أو بعيد . ومن ثم يستطيع أىّ فرد من سكان الشواطئ ، فى الإسكندرية أو دمياط أو بور سعيد ، أن يعدّ ويتصور من أسماء السمك وحيوان البحر وأنواعه عشرات ، ولا يستطيع نُدَّه فى الصعيد لم ير غير النيل ، وأسماكه محدودة ، وحيوانه نادر ، أن يتجاوز بعلمه أربعة أسماء أو خمسة فى أقصى الحالات .

أما لمدركات العقلية التى لا تتأثر بالبيئة ، أو تأثرها محدود ، فإنها تبدو لنا ، صفاء ووضوحًا ، على نحو ما كانت عليه فى عصر قائلها ، ولا أظنّ عربيًّا على

قدْر من الثقافة ، ولو محدودًا ، يجد عنتًا فى فهم أبيات المثقِّب العبدى ، من شعراء القرن السادس الميلادى :

أفاطمُ قبل بَيْنِك مَتّعينى ... ومَنْعُكِ ما سألْتُك أن تَبِينى
ولا تَعِدى مواعدَ كاذباتٍ ... تَمُرُّ بها رياح الصيْفِ دُونِى
فإنّى لو تُعاندنى شِمَالِى ... عِنَادَك ما وصلتُ بها يمينى
إذًا لَقَطَعْتُها ولقلتُ بِينِى ... كذلك أجْتَوِى من يَجتوِينى
فإمّا أن تكون أخى بحقٍّ ... فأعْرِفَ منك غثّى من سمينِى
وإلّا فاطرحنِى واتخذْنِى ... عَدُوًّا أتّقيك وتتّقينى
فما أدْرِى إذا يَمَّمْتُ أرضًا ... أريدُ الخيْرَ أيُّهما يَلِينِى
أألخْير الذى أنا أبْتغيه ... أمِ الشرُّ الذى هو يَبْتغِينِى

وعبر ألف ونصف ألف من الأعوام ، لم يتوقف العقل العربى عن الإبداع . حتى فى أحلك ساعات الأمة العربية ، وكانت حصيلة ذلك تراثًا ثقافيا واسعًا ، يعكس حقيقة مجتمعه ، فى سموّه واحتضاره ، فى صعوده وتوقُّفه ، وكان على دارس الأدب العربى ، أن يضع كل ذلك فى تصوره وتحت خدمته . وكان الإلمام بذلك التراث ، ومعرفة محتواه ، إحدى المشكلات الكبرى التى تواجه الدارسين ، ناشئة ومكتملين .

عرضت لى هذه الصعوبة وأنا فى مطلع حياتى الأدبية ، وكانت شاغلى خلال أعوام طويلة من دراستى فى إسبانيا ، ووجدت القوم هناك قد استعانوا على مواجهتها بحلول ثلاثة : دوائر المعارف المتعددة ، حجمًا ومادة ، والتزام المجامع الإسبانية بطبع التراث الإسبانى كله ، أيًّا كان لونه ، فى سلسلة أطلق عليها « المؤلفون الإسبان Autores Espanoles » وتنشر فيها الكتب مرتبة تاريخيًا ، يقوم على كل مؤلف عالم فى المادة التى يعالجها الكتاب ، يقدم له ، ويقوّم موضوعه ويضعه فى مكانه الحق . ثم تعريف شامل بالمصادر ، مصادر كل مادة على حدة ، يبيّن الدارس لها جانب النفع منها ، ويرتبها وفق أهميتها ، فلا يضل الباحث الناشئ فى المادة ، ويعرف من أين يبدأ طريقه .

ثم عدتُ إلى وطنى ، وفى ذهنى هذه المعانى كلها . ولم يكن خافيًا علىّ أن حظنّا

من دوائر المعارف معدوم ، فترجمة « دائرة المعارف الإسلامية » تتمّ فى بطء شديد ، والحصول على نسخها فى لغاتها الأجنبية فوق طاقة انفرد العادى ، والمحاولات الفردية كتابة « موسوعات عربية » قصرت جهدها على جوانب محدَّدة من ثقافتنا ، كالأطفال ، والعلوم المبسّطة ، وما يتصل بالمعارف ذات الصبغة العالمية ، والتى لا يكلف نشرها غير ترجمة ما فى دوائر معارف الآخرين دون التزام للنص ، أو تقيد به ، أو معاناة نقله كما أراد صاحبه منه . ولمحاولة الوحيدة لإخراج « الموسوعة العربية الميسرة » أفسدها نظام « الشلل » لقد مُهِّد لها بتبيان كبار العلماء الذين شاركوا فيها ، لكن أحدًا من هؤلاء لم يكتب شيئًا ، أو كتب شيئًا قليلا للغاية ، كى يبرر القائمون عليها وضع اسمه فى قائمة المحررين ، أما البقية فقام بها أناس يكتبون فى كل شىء ، فجاءت مادتها دون ما كنا نرجوه لها .

وبقى نشر التراث فى مجمله خاضعًا لرغبة الأفراد وإمكاناتهم ، وأهواء الورّاقين ومطامعهم ، والمحاولات المنظمة ، التى تقوم بها بعض دور النشر تعمل فى بطء شديد ، والأمر قبل ذلك ومن بعد ، يحتاج إلى تنسيق بين شعوب العالم العربى ، فلا ينشر الكتاب الواحد محقّقًا فى أكثر من دولة ، بينما كتب أخرى مخطوطة فى أضابير المكتبات ، فى حاجة إلى من يلقى عليها شيئًا من الضوء .

وبقيت دراسة المصادر ، دراستها وليس إعداد قوائمها ، تنتظر من يرتاد ذلك الطريق المجهول ، ومبلغ علمى أن أحدًا لم يقدم على هذا العمل ، إذا استثنينا محاولة متواضعة ، قام بها من أعوام طويلة ، الأستاذ محمد عبد الغنى حسن ، كنت قد أفدت منها أيام الطلب ، لكنه لم يمض بها إلى غايتها متابعة أو تحسينًا .

ثم اختارنى مجلس جامعة القاهرة مدرّسًا بقسم الدراسات الأدبية بكلية دار العلوم ، فوجدت الفرصة سانحة لتحقيق أمل راودنى ، بأن أجنّب طلابى الصعاب التى اعترضتنى حين كنت فى مثل سنهم ، وشجعنى على ذلك منهاج ممتاز يسير عليه ذلك المعهد العريق ، فى العناية بالنصوص درسًا وتحقيقًا ، والبدء بها عند البحث ، واستهدائها الدليل عند الاختلاف ، وكان مما يدرسه طلابنا « المكتبة العربية » يدرسون فى كل عام كتابًا أو كتبًا منها ، فاقترحت على أساتذتى وزملائى فى القسم أن تُدرس المكتبة العربية فى عام واحد ، محاضرات متكاملة فيما بينها ،

فاستجابوا للاقتراح مشكورين ، فكان ما يمكن أن أسميه مادة « مصادر الأدب » ووقع علىَّ عبء تدريسها .

كان النهج الذى آثرته أن تجمع الدراسة بين جانبيها العملى والنظرى ، فكان الطلاب يمضون إلى المكتبة ، يقرءون المصادر موضع الدراسة ، ثم يدوّنون ملاحظاتهم عليها ، فإذا التقينا تبادلنا هذه الملاحظات ، ونسقّنا فيما بينها نرد كل ظاهرة إلى أسبابها ، ونفسر كل اتجاه من حياة مؤلفه ، ونصحح ما قد يكون فى الكتاب من أخطاء مردّها معارف المؤلف ، أو إهمال الناشر ، ثم نحدد مكان الكتاب فى قائمة المصادر ، ومواد الأدب التى يكون فيها مصدرًا مباشرًا أصيلا ، أو مرجعًا معاونًا من الدرجة الثانية .

وقد رأيت أن نشر هذه الدراسة فى كتاب يجعل الفائدة منها أكثر شمولا ، ويعين الطلاب على ترتيب معلوماتهم ، وهى - مهما كانت - جهد شباب مبتدئ ، ويضع بين يدى الدارسين والباحثين من طلاب الدراسات العليا ، والعجلين ليس لديهم ما ينفقونه بحثًا عن الكتب واستجلاء غوامضها ، صورة مصغرة لمادة هذه الكتب واتجاهات أصحابها .

لم يكن القصد أن ندرس حياة العلماء المؤلفين ، ذلك شىء لا يتأتى لكاتب واحد ، فى كتاب واحد ، فإن كل واحد منهم قمة فى بابه ، وإنّما هَدَفْنَا إلى التعريف بمادة الكتاب ، وما يعين على توضيح الدوافع التى وراء الآراء والاتجاهات والمذاهب التى يتضمنها ، وتقصيتُ ، ما أمكن ، ما لدينا من مخطوطات كل كتاب ، ونشراته ، ما كان منها تجاريًّا رديئا ، أو علميًّا محققًا ، لتجنيب الدارسين سقطات الاعتماد على نسخ ناقصة ، أو مشوهة ، أو مليئة بالتصحيف والتحريف . ومن هنا كان اهتمامى بتتبع طبعات كل كتاب ، والتعريف بما كان منها جيدًا يجب أن يتجه إليه الباحث فى أول خطوة له ، لأجنبه مزالق الاعتماد على طبعات مضللة ، الاعتماد عليها مجازفة علمية غير محمودة العواقب .

وإذْ كان أغلب ما لدينا من التراث كتبًا مخطوطة ، خُطَّتْ بأقلام مختلفة ، وفى أمكنة وعصور متباينة ، فقد رأيت أن أقدم لهذه الدراسة ، بأبحاث تتصل ببداية التدوين ، والخط العربى ، نشأته وتطوره وصوره ، وبطرق النسخ ووسائلها ،

والقائمين عليه ، وطرق التثبت من صحة النص ، ووسيلتنا المعاصرة للمقابلة بين هذه النسخ إذا اختلفت .

لست أزعم لهذه المحاولة الكمال ، فهى كأى عمل رائد لها صعابها ومخاطرها ، ولكنى آمل أن أكون قد بدأت بها خطوة ، إذا ما قدّر لها أن تصل إلى غايتها ، فسوف تضع بين يدى الباحث العربى استعراضًا متناسقًا لأمهات المصادر فى الأدب العربى ، على اختلاف أقطاره ، فتكون دليله وعونه وأداته ، فى رحلته إلى عالم المعرفة لواسع .

إن تراثنا العقلى ما زال مطمورًا ، وما نشر منه ليس بأفضله دوامًا ، وغياب هذه النفائس شجع بعض النفوس الضعيفة ، على أن تتخذ من سب الأدب العربى والقائمين عليه وسيلة لمشاغبات تظهر بها ، والهدم أسهل من البناء ، والسلبية طريقها معبد ، والخلق الفنى محفوف دائمًا بالمكاره والصعاب ، ومن يضىء شمعة خير من آلاف يلعنون الظلام ولا يصنعون شيئًا .

أعلم أن المحاولة شاقة ، وأن الطريق طويل ، ولكن الأمل فى أن يثمر هذا الغرس : أعان على اقتحام صعبه ، وخوض لُجَجه ، والعلم أمانة ، والتواضع فى محرابه فضيلة ، وما قرأت شيئًا جديدًا ، إلا أحْسستُ أننى أجهل الكثير ، وأنّ دون ما أتيناه لنفسى يومًا بعيدًا ، ومن ثم فسوف أكون سعيدًا ، بأى ملاحظة تعين على تقويم هذا العمل ، وإصلاح ما قد يكون داخله من نقص أو خطأ ، أو تسهم فى البلوغ به حدّ الكمال .

وبعد :

فالله أسأل ، أن يجعله خالصًا لوجهه ، وأن يعيننا على خدمة لغة قرآنه ، وأن يهيئ لنا من أمرنا رشدًا .

يناير ١٩٦٨